تأريخ الإسلام في الكتابات الغربية

قيس الجهضمي

يتتبع فرد دونر في مقالته "اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام" حركة الكتابة الغربية ومناهجها وأهدافها في دراسة تأريخ الإسلام موضحا أنّ الفصل بين الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام أو عن الإسلام بشكل عام هي صعبة جدا؛ بسبب العلاقة القويّة بينهما، فيذهب إلى أنّ بداية حركة الكتابة الغربية نشأت من الاحتكاكات الأولى سواء السياسية أم الدينية بين المسلمين والأوروبيين، خصوصا تلك التي كانت بالقدس والشام خلال الحروب الصليبية، إذ كان مبدأ هذه الكتابات هو الدعاية ضد الإسلام على المستوى الفكري، فوجد الغربيون أنّ أسهل طريقة في هذه الدعاية هي نزع الثقة والافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى حقيقة الوحي،

فتنوعت الكتابات الغربية الأولى بين المجادلة العقائدية وبين نُبَذ تعريفية عن الإسلام، ولا عجب أن نجد كثيرا من الصور المشوهة للنبي والإسلام في الكتابات الغربية خلال هذه الفترة.

مكّن ظهور أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اليونانية بقلم الراهب "روبرت كتون" (Robert Ketton) في ١١٤٩م من اكتشاف حقائق جديدة عن الإسلام لدى الغربيين بشكل مباشر، لكن ما زال العقل الأوروبي يقف من الإسلام موقفا عدائيا، وهو جزء من الصراع بين الدول الإسلامية والأوروبية كما يظهر في الأندلس والبلقان وغيرها، واستمر هذا الموقف في تشكيل الخلفية التاريخية للكتابات الجديدة في القرون التالية كما في القرن الثامن عشر، وبدا أثر الكتابات السلبية الحاصلة في القرون الوسطى حاضرا في الكتابات الغربية المعاصرة كمسائل تعدد الزوجات والطلاق وعلاقة الإسلام بالعنف.

وأدى تقليد المجادلة على الإسلام في الكتابات الغربية إلى عدم التوازن في معالجة الفترات التاريخية، فاشتغل الغربيون على فترتين من تاريخ الإسلام: فترة أصول الإسلام، والفترة الحديثة المعاصرة لتلك الكتابات. ويرجح اهتمام الكتاب الغربيين بالمجادلة في فترة أصول الإسلام لعنايتهم بالموضوع لمناقشة الأمور المتعلقة بالرسول لأغراضهم الدعائية، أما الفترة المعاصرة لتلك الكتابات فإنها بحكم نقد الواقع المعاش، وفي القرن الثالث عشر ظهرت حركة "التنوير الأوروبي" العقلانية التي قاربت من الإنصاف في الكتابة عن الإسلام، إذ يعزى تطور مبادئ هذه الحركة إلى الاكتشافات العلمية التي رافقت تلك الفترة مثل اكتشافات "كوبرنيكوس" (Copernicus) في الفلك و"هارفي" (Harvey) للدورة الدموية و"نيوتن" (Newton) في الفيزياء والكيمياء، وأدى ظهور المنهج العقلي إلى رفض بعض عقائد الكنيسة التي لم توافق العقل مما خلق تعاطفا مع الإسلام، فظهرت كتابات ذكر فيها الرسول بصورة إيجابية مثل كتاب "الأبطال والبطولة" بقلم "كارلايل" (Carlyle)، والكتابات العلمية الأولى عن الإسلام وتأريخه بعيدا عن الدعائية ككتاب "انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" للمؤرخ "غيبون" (Gibbon)، إذ مهّد هذا الكتاب إلى منهج "الاقتراب الوصفي" في كتابة التأريخ الإسلامي، واعتمد فيه المؤرخون الغربيون على المصادر الإسلامية العربية أو غيرها في تفسير حوادث التاريخ الإسلامي.

كانت مبادئ التنوير الأوروبي تسمح بحرية التعبير حسب المنهج العقلي الإنساني، ومنها انتقلت الكتابة الغربية إلى التحليل التاريخي عن طريق معالجة النصوص، وسمي بمنهج "النقد الأعلى" الذي سعى للتشكيك في حقيقة الكتاب المقدس ونسبته المباشرة إلى الله، بل هو من عمل البشر خلال القرنين ١٨ و١٩، ويرى دونر أن هذا النقد للكتاب المقدس لم يرد أصحابه الهجوم على الكنيسة بقدر ما كانت رغبة فيهم للعلم والإدراك العقلي.

ولتكرير هذه المناهج وانتشارها أثر في إدراك الغربيين أن وصف الأحداث لا يكفي لدراسة التأريخ الإسلامي مع وجود تناقضات في المصادر التاريخية فظهر اتجاه آخر في الكتابة الغربية لتاريخ الإسلام هو منهج "نقد المصادر"، فبدأ بعض المؤرخين في تصنيف المصادر بين الضعيف "لا يستحق ثقة المؤرخ" والقوي "يستحق ثقته" من منتصف القرن ١٩، وألف الهولندي "دي جويه" (De Joeje) في الحقبة نفسها كتابًا عن الفتوحات الإسلاميّة المبكرة موضحًا التناقضات الخطيرة في المصادر، ثم ذهب المؤرخ الألماني "فلهازون" (Wellhausen) في نهاية القرن التاسع عشر إلى أن المصادر العربية لتاريخ صدر الإسلام هي مؤلفات مركبة من مصادر قديمة مفقودة، وافترض "فلهازون" أن هذه المصادر القديمة المفقودة هي كالوثائق، ومنها سميت دراساته للكتاب المقدس "بالنظرية الوثائقية" (Documentary Hypothesis)، ثم افترض أيضا أن لهذه المصادر المفقودة سمات تحدد ميول مؤلفها.

بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وجد الغربيون اختلافات بعضها خطيرة في المتن مما أثار شكوكا في فرضية فلهازون أن المصادر المفقودة هي مصادر وثائقية، وظهرت فرضية أخرى للمجري "غولد زيهر" (Goldziher) صرّح فيها أن الروايات كانت تتناقل شفهيا أحيانا وتتغير وتتطور على مر الزمن ثم تنتشر في أيدي رواة مختلفين، وسمي هذه الاتجاه بـ"نقد الروايات".

إنّ الاتجاهات الغربية العلمية الثلاثة في دراسة تاريخ الإسلام "الاتجاه الوصفي، واتجاه نقد المصادر، واتجاه نقد الروايات" قد اهتمت بدراسة فترة أصول الإسلام لسببين: أهمية هذه الفترة كما رأينا سابقا، ولأن مصادر هذه الفترة غير وثائقية؛ فدراسة القرون بين فترة أصول الإسلام والعصر الحديث قليلة وغير متعمقة بسبب قلة الباحثين الغربيين الذين يحث بعضهم بعضا على التعمق في المادة، ونجد بين عامي ١٨٨٠ و١٩٥٠ كثيرا من المواضيع المهمة عن تاريخ الإسلام درسها عالم واحد فقط!، فيروي دونر أنه حتى ستينيات القرن الماضي لم يوجد في الولايات المتحدة سوى متخصص واحد في الشريعة الإسلامية وهو "جوزف شاخت" (Joseph Schacht)، وخبير واحد في الدولة المملوكية في الغرب وهو المؤرخ الإسرائيلي "ايالون" (Ayalon)، فهذه الفترة يظهر فيها قلة المتخصصين في الإسلام في الغرب مما عرقل بشدة الدراسات الغربية حتى منتصف القرن الماضي، إذ أنّ التطور الصحيح في الدراسات يتطلب متخصصين بعدد كاف يمارسون النقاش والمنافسة.

كانت بداية الستينيات في القرن الماضي بداية اهتمام بدراسة "القرون الإسلامية المهملة" بصورة مكبرة ومتزايدة للغربيين، وقد حدثت تطورات إيجابيّة بعد ستينيات القرن الماضي في مجال دراسة التأريخ الإسلامي:

ازدادت في السنوات الأخيرة أعداد الباحثين في تأريخ الإسلام، وتوزع الباحثون في أكثر من موضع في هذه المساحة.

دراسة الإسلام في نطاق علم الأديان أو علم الأديان المقارن.

الكثير من الباحثين يتقنون اللغات التي كتب بها تأريخ الإسلام كلغات حيّة.

عناية بعض الباحثين بالدراسات القرآنية ومن كل اتجاه: أصل النص، تطور تقليد القراءة، والتفسير... إلخ.

ويرى دونر أننا على مشارف حقبة ازدهار في دراسة التاريخ الإسلامي في الغرب، لكن الموقف العدائي ضد الإسلام ما زال قائمًا، وهو يأمل أنّ هذه الدراسات العلمية ستقاوم هذا الموقف وتقود الشرق والغرب لمستقبل زاهر.

qabuazan@gmail.com